

-NADWI

SHA'IR AL-ISLAM

PAIR



32101 021530173

$$\begin{array}{r} 2465 \\ 4977 \\ \cdot 831 \\ \cdot 2 \end{array}$$

2465.4977.831.2

21-NadVT

Sha'ir al-islam

[illegible]

أبو الحسن علي الحسيني السدي

شاعر الإسلام
الدكتور محمد إقبال

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٩٥١

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

PAIR>



32101 021530173

Nadvi, Abulhasan 'Alī

ابو الحسن علی احسنی ندوی

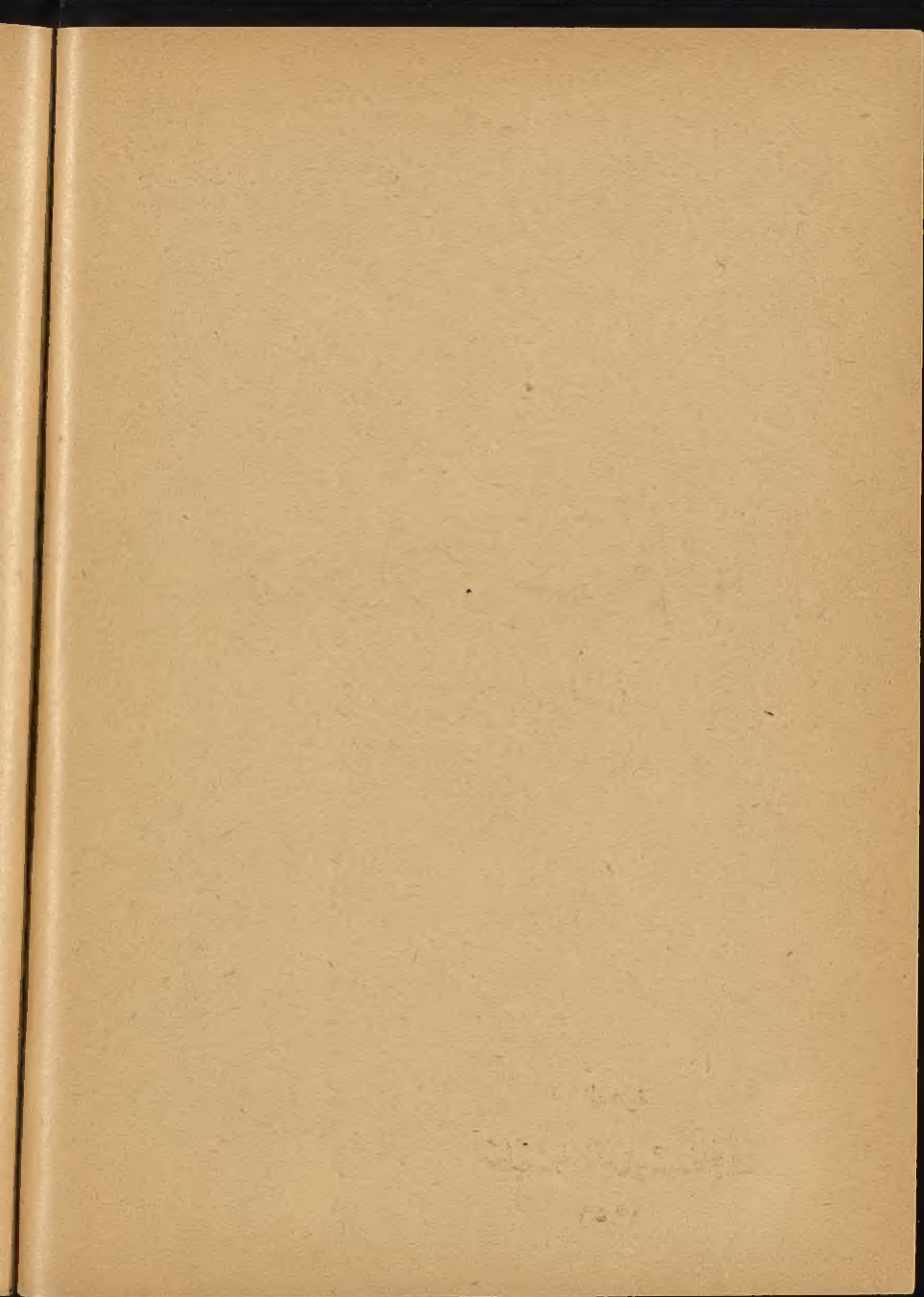
Shā'ir al-Islām

شاعر الاسلام
الدكتور محمد اقبال

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٩٥١



شاعر الاسد ————— لام

الدكتور محمد إقبال

ثقافته ومكونات شخصيته ، آراؤه في التعليم والعلوم

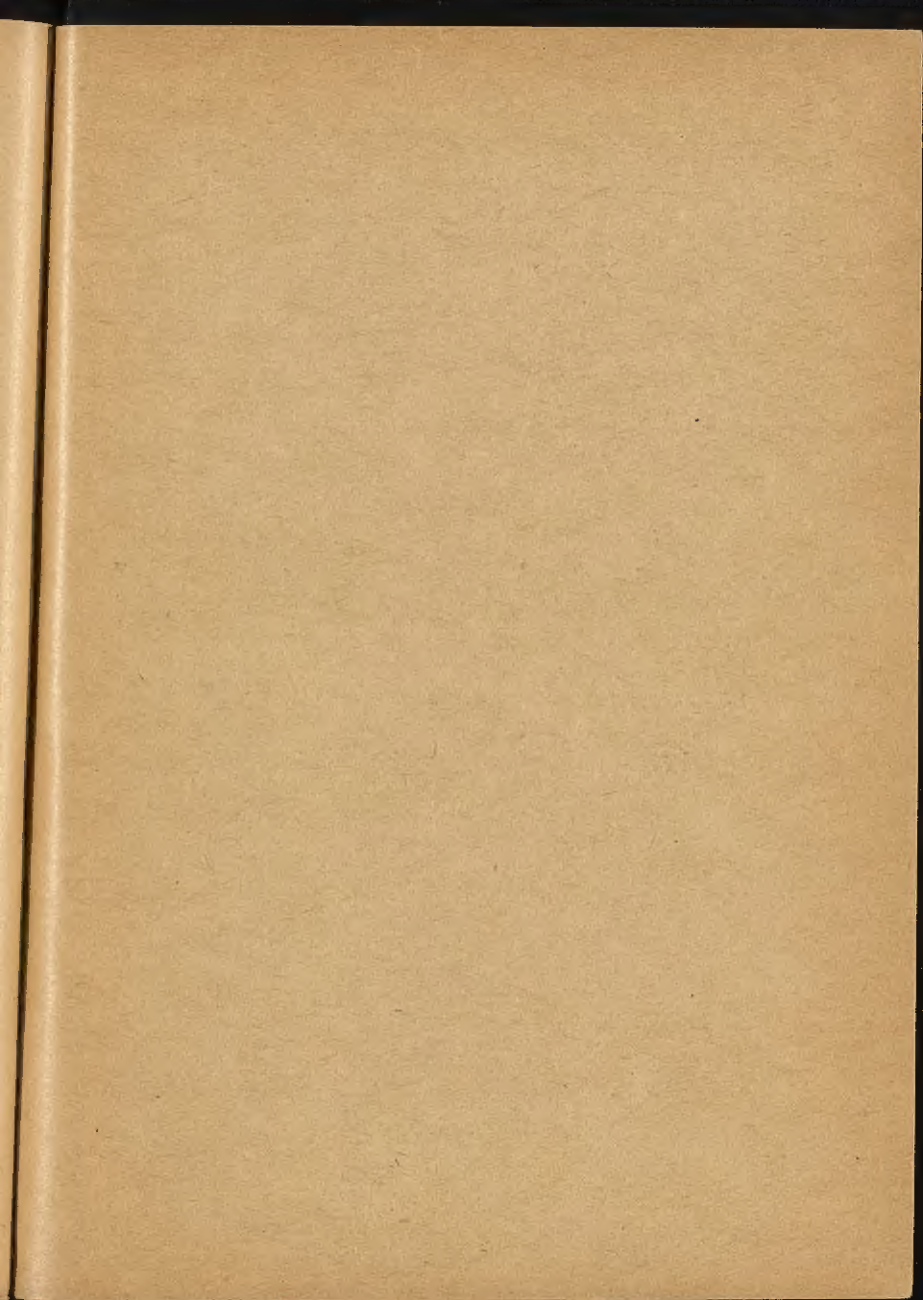
والآداب، ورسالته إلى الجيل الجديد والشباب الإسلامي

2465

4977

831

2



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شاعر الإسلام
الدكتور محمد إقبال

مقدمة حياته :

ولد محمد إقبال في سيالكوت مدينة في مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير أسلم جده الأعلى قبل مائتي سنة وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد إقبال في مدرسة انجليزية في بلده واجتاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ويطبعون فيهم ذوق العلم فأثر في الشاب الذكي كل تأثير وغرس فيه حب الثقافة والآداب الإسلامية ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره من الكلية سافر إلى لاهور عاصمة
 بنجاب وانضم إلى كلية الحكومة حيث أدى الامتحان
 الأخير في الفلسفة وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال
 وسامين وأخذ شهادة بكالوريا بامتياز ، وفي لاهور اتصلت
 أسبابه بالأستاذ الانجليزي الشهير سرتامس ارنولد صاحب
 كتاب دعوة الإسلام (Preaching of Islam) ورئيس
 الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالشيوخ عبد القادر
 المحامى والأديب الشهير وقاضى محكمة الاستئناف بعد وعضو
 مجلس الهند سابقاً ، وكان أنشأ أول مجلة علمية أدبية في اردو
 اسمها « مخزن » ، وكان إقبال نظم قصيدته الأولى البديعة
 « جبل هماله » ، وهى فارسية التركيب انجليزية الأفكار ونشرها
 الشيخ في مجلته سنة ١٩٠١ م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد
 فى مجموع شعره الأول ، وكان لها دوى فى أندية الشعر
 والأدب واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع ، وفى هذه
 المدة أخذ محمد إقبال درجة (الماجستير) فى الفلسفة بامتياز
 ونال وساما وعين على أثره أستاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة
 فى الكلية الشرقية فى لاهور ، ثم أستاذاً للانجليزية والفلسفة
 فى كلية الحكومة التى تخرج منها وشهد بكفاءته وغزير علمه

الأساتذة والطلبة جميعاً وحاز على ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة كامبرج وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة وتولى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، ثم سافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة مينخ الدكتوراه في الفلسفة ثم رجع إلى لندن واشترك في الامتحان النهائي في الحقوق وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن وتخصص في العلمين ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند سكب على ترابها دموعاً وقال قصيدة افتتحها بقوله : « إبك أيها الرجل دماً لا دمعةً فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفيلسوف الإقتصادي السياسي الحاذق في عدة لغات بالمحاضرة ، لكن ما كان هواه في المحاضرة فكان يقضي أكثر أوقاته وجل

همته في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ، منها قصيدة « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حل بهم وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والاصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية بين فيها تقصير المسلمين وإهمالهم للدين وعدم إتقانهم أمر الدنيا تبريراً لما جزوا به من الحزى والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان وتغنى بهما الأطفال والشبان وحفظهما الرجال والنساء وهما عندهم أشهر من « قفانبك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والغرض ، وقال : « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا يزال ترتجى بها الحفلات المشتركة الشعبية في الهند والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها إجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ م وما يوم حليلة بسر ، فكان لها في نفسية الشاعر أعظم أثر وجرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه وهاج هائج

وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية
 الأوربية وأملأه حزنه ووجدته قصائد كلها دموع حارة في
 سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوربيين . وتتجلى
 هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده
 « البلاد الإسلامية ، رد على « الوطنية ، والدعوة إلى الجامعة
 الإسلامية » إلى شباب الإسلام ، « يا هلال العيد ، المسلم ،
 « فاطمة بنت عبد الله — (وهي فتاة مسلمة استشهدت في
 جهاد طرابلس) « محاصرة أدرنه ، « الصديق » « بلال ،
 « الحضارة الحديثة » ، الدين » « شكوى إلى الرسول ، وقد نعى
 في هذه القصيدة على الزعماء والقادة الذين يتزعمون المسلمين
 وليست عندهم صلة روحية بالنبي صلى الله عليه وسلم يقول :
 « أنا برىء من أولئك الذين يحجون إلى أوربا ويشدون إليها
 الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم
 ولا يعرفونك ، و « هدية إلى الرسول ، وقد قال فيها « إنه
 حضر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه
 وسلم ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا
 وقال إنها لا تليق بمقامك الكريم ، ولكن أنا جئت بهدية
 زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس ،

ثم انفجر البركان الأوربي سنة ١٩١٤ وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعياً ومجاهداً وحكماً وفيلسوفاً يتسكهن بالآخبار ويقول الحقائق وينظم الحكم ويشب من حماسته نيراناً ويفجر بإيمانه وثقته أنهاراً وجاش صدره وقاض خاطره وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرر قصائده منها « خضر الطريق » وفيها قطع منها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلها آية في الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة ، أما طلوع الإسلام فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤ م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً وحظي من القبول ما لم يحظ شعر شاعر وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته وقد ازداد فكره نضجاً وأفق معارفه اتساعاً وقد انتظمت دعوته واتضح رسالته فنشر له عدة كتب بالفارسية وقد اختار اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردوية وهي اللغة

الإسلامية الثانية التي يتكلم بها قطر ان مهمان إيران وأفغانستان
وتفهم في الهند ويحذقها كثير من أهلها وأهل تركستان
وروسيا ، وكتابان بالأردوية فأما الدواوين الفارسية فهي
« أسرار خورى » يعنى أسرار معرفة الذات و « رموز بيخودى
(أسرار فناء الذات) و « بياض مشرق » (رسالة الشرق)
في جواب كتاب « جيته » « تحية الغرب » و « زبور عجم »
و « جاويدنامه » و « بس جه بايد كرد أى أقوام شرق »
(ماذا ينبغى أن تعمل الشعوب الشرقية) ومسافر و « ارمغان
حجاز » (هدية الحجاز) و بالأردوية « بال جبريل » (جناح
جبريل) و « ضرب كلیم » (ضرب موسى) وغير هذه الكتب
محاضرات ألقاها في مدراس طبعت باسم - Reconstruction
of religious thought in Islam) ومحاضرات ألقاها في
جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون
وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيمًا وعلقوا عليها أهمية كبيرة
وترجم أكثر كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية
والطليانية والروسية ، وعن تولى هذا النقل الأستاذ الإنجليزي
الشهير الدكتور نيكلسن فترجم بالإنجليزية « أسرار خودى »
و « رموز بيخودى » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات

باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً
 لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت
 سنة ١٩٣٠م في اله آباد وعرض في خطبته فكرة الباكستان
 أول مرة وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب
 وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim
 Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ٣٣ —
 ١٩٣١ وجائته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وأسبانيا
 وإيطاليا فزار القطرين الآخرين وألقى في مجريط محاضرات
 في الفن الإسلامي وزار مسجد قرطبة وصلى فيه لأول مرة
 في التاريخ بعد جلاء المسلمين وذرف على تربته دموعاً
 غزارا وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض
 ثمانية قرون واستنشق في جوه وهواه أريج حضارتهم وشعر
 كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجد المؤمنين
 وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان وظمأه إلى
 ذلك . فقال الشعر الرقيق الذي يعد من القطع الأدبية الخالدة
 ونظم قصيدة من أبدع قصائده ، وكان في زيارته لهذه البلاد
 موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ وقابله السيكتور موسوليني
 وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه

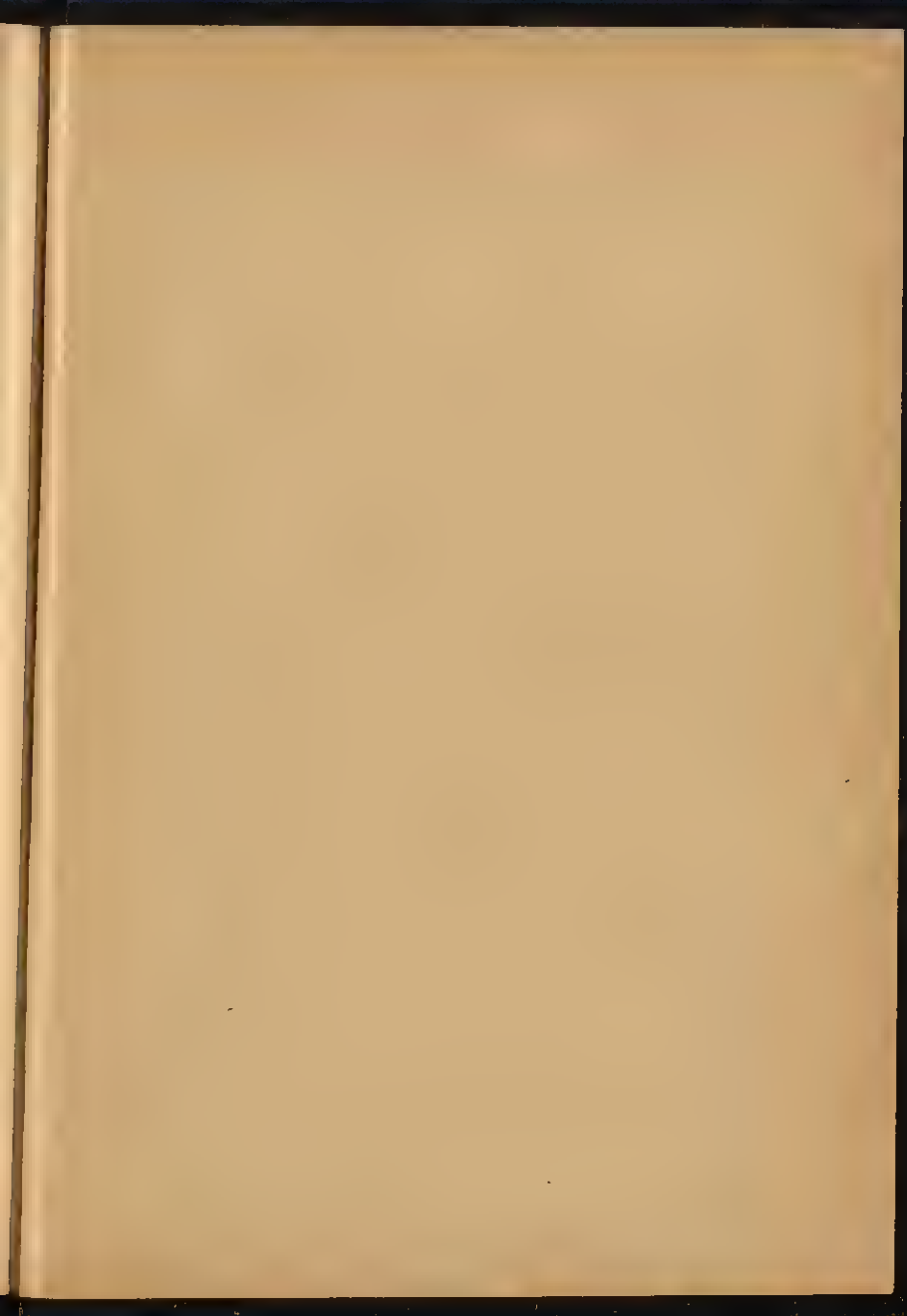
طويلا، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال أفريقيا ولكن رفض الشاعر الإسلامى الغيور دعوتها وأبى أيضا أن يزور جامع باريس وقال إن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها، وأثناء إقامته بأوربا أقيمت له عدة حفلات تكريم منها حفلة تكريم أقامها له أصدقائه وأساتذته في جامعة كامبردج وجامعة لندن وحفلات أقامها جمعية أرسطو وجامعة روم وجامعة السربون وجامعة مجريط ، والمجمع الملكى فى روم ، وفى طريقه إلى الهند عرج على القدس واشترك فى المؤتمر الإسلامى الشهير ، وقال فى أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفى سنة ١٩٣٢ لى دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك أفغانستان فى بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سر راس مسعود حفيد سر سيد احمد خان وعميد جامعة عليكره الإسلامية والاستاذ الكبير السيد سليمان الندوى ، وتحدث إليه الملك الفقيه طويلا وأفضى إليه بذات صدره وبكى طويلا ، ولما زار قبر السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند والحكيم سنائى لم يملك عينيه وافتضح باكيا وعلى أثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه وانحرفت صحته
 أخيراً وظل أياماً طويلة رهين الفراش لم يزل لسانه يفيض
 بالشعر ويملي الكتب والمقالات ويقابل الأصدقاء والزوار
 والعواد ويحادثهم في شؤون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له
 في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الرد على القومية تناقلتها
 الصحف وتحدث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام «جنة
 لأرباب الهمم وجنة لمقدسي الحرم قل للمسلم الهندي : أبشر
 فإن في سبيل الله جنة أيضاً ، وقال قبل وفاته بعشر دقائق
 (ليت شعري هل تعود النعمة التي أرسلتها في الفضاء وهل
 تعود النعمة الحجازية ، قد أظنني موتي وحضرتي الوفاة
 فليت شعري هل حكيم يخلفني) وقال وهو يجود بنفسه (أنا
 لا أخشى الموت أنا مسلم ، من شأن المسلم أن يستقبل الموت
 مبتسماً) وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الإسلام
 وإيمان المسلم وبقيته ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه
 القديم على حين غفلة من العواد والأصدقاء والتلاميذ
 والإخوان والأولاد الروحانيين في سائر أنحاء العالم الإسلامي
 وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارة ونورا قبل
 أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م

العوامل

التي كونت شخصية محمد إقبال
وأراؤه في التعليم والعلوم والجيل الجديد



العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال

وأراؤه في التعليم والعلوم والجيل الجديد^(*)

سأدق وإخواني ! يسرني جداً أن أتحدث إليكم عن شاعر الإسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال ، ويزيدني سروراً واعتباطاً أن يكون هذا الحديث في مركز تعليمي وأدبي كبير كمدار العلوم وبهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم والمدارس التي تخرج فيها وأراؤه ونظراته في التعليم والمتعلمين والثقافة والمثقفين والجيل الجديد .

المدرسة الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرج محمد إقبال في مدرستين ، أما المدرسة الأولى فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلب في فصولها ودروسها ما بين الهند وإنجلترا وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ويرتوي من مناهلها حتى أصبح

(*) محاضرة أُلقيت في كلية دار العلوم في ٢٠ من جمادى الثانية

١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/٣/٥١ م .

من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته من فلسفة واجتماع وأخلاق واقتصاد وسياسة ومدنية غاية ما يمكن لغربي متخصص فضلا عن شرقي متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسع في الآداب الانجليزية والالمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية والعبقرية الإسلامية ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة والتفكير في العلوم وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراساتها لما زاد على أن يكون أستاذا كبيرا في الفلسفة أو علم الاقتصاد أو في الأدب أو في التاريخ ، أو مؤلفا كبيرا أو محاضرا بارعا في العلوم العصرية أو أدبيا

صاحب أسلوب أو شاعر آجيدا ، أو محاميا ناجحا في مهنته
أو قاضيا في محكمة أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها
الإخوان أن لو كان ذلك لطواه الزمان في من طوى من
كبار العلماء والأدباء والشعراء ، والمؤلفين والقضاة والوزراء ،
إن الفضل في عبقرية إقبال وخلود آثاره ونفوذه في العقول
والقلوب يرجع إلى المدرسة الثانية التي تخرج فيها .

إني لأراكم أيها الإخوان تذهبون كل مذهب في تشخيص
هذه المدرسة والاهتمام إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون
إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل
هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما
هي لغة التعليم في هذا المعهد ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك
أنهم من كبار المربين وأعظم الموجهين فقد انتجوا مثل هذا
النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي
شروط هذه المدرسة وتكالييفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها
ومحلها لأسرع كثير منكم إليها والتحق بها .

إنها مدرسة ما خاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرج
منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين وواضعي
العلوم المبتكرين وقادة الفكر والإصلاح المجددين الذين

يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ودراسة ما كتبوا
وشرح ما خلفوا وتعليل ما ألفوا وتأييد ما أثبتوا وتفصيل
ما أجملوا فيتكون من كلتهم كتاب ومن كتبهم مكتبة .
إنها مدرسة ما تعلم التاريخ بل تخلق التاريخ ، وما تشرح
الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار بل تنتج الآثار ،
إنها مدرسة توجد في كل مكان وزمان وهي أقدم مدرسة
على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوان طويلا ، إنها مدرسة
داخلية تولد مع الإنسان . ويحملها الإنسان معه في كل مكان ،
هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسة تشرف عليها التربية
الإلهية وتمدها القوة الروحية .

قد تخرج محمد إقبال في هذه المدرسة كما تخرج كثير من
الرجال الموهوبين وحدث عنها كثيرا في شعره ورد إليها
الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته وصرح
مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية
وأنه لو لا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته ولما اشتعلت
مواهبه ولا اتضحت رسالته ولا تفتحت قريحته وقد حدث عن
معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فمن يرد الفضل إليه في هذه المدرسة ، الإيمان ، الذي لم يزل مربيا له ومرشدا ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب الذي هو مجرد عقيدة أو تصديق بسيط بل هو مزيج اعتقاد وحب يملك عليه القلب والمشاعر والعقل والتفكير والإرادة والتصرف والحب والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوى العاطفة شديد الإخلاص والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، متفانيا في حبه مقتنعا بأن الإسلام هو الدين الخالد الذي لا تسعد الإنسانية إلا به وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل والبصير بالسبيل وإمام الكل ، ويرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي صلى الله عليه وسلم وحبه العميق له ، ولا شك أن الحب هو خير حاجز للقلب وخير حارس له إذا احتل قلبا وشغله منعه من أن يغزوه غيره أو يكون كريشة في فلاة أو يعبت به العابثون يقول : لم يستطع بريق

العلوم الغربية أن يهر لبى ويعشى بصرى وذلك لأنى
اكتحلت بإئمة المدينة ، ويقول « مكثت فى أتون التعليم
الغربي وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود ، ويقول
« لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدونى ويكمنون لى
ولكنى لا أخافهم فإنى أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا
رزق الحب الصادق عرف نفسه واحتفظ بكرامته واستغنى
عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم
وانقادت لى الصعاب فإنى من عبيد ذلك السيد العظيم الذى
تشرفت بوطأته الحصباء فصارت أعلى قدراً من النجوم
وجرى فى إثره الغبار فصار أعقب من العبير ، .

وفى كتاب « أسرار خودى ، ذكر الشاعر مقومات
حياة الأمة الإسلامية والدعائم التى تقوم عليها فذكر منها
اتصالها الدائم بنبيها صلى الله عليه وسلم والتشبع بروحه
والتفانى فى حبه ، ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اندفع
الشاعر يمدحه وأرسل النفس على سجيته فقال أياتا لا تزال
تعد من غرر المدائح النبوية والشعر الوجدانى ، يقول « إن
قلب المسلم عامر بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو أصل
شرفنا ومصدر نخرنا فى هذا العالم ، إن هذا السيد الذى داست

أتمته تاج كسرى كان يرقد على الحصى ، إن هذا السيد الذى
نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالى لا يكتحل بنوم ،
لقد لبث فى غار حرام ليالى ذوات العدد فكان أن وجدت
أمة ووجد دستور ووجد دولة ، إذا كان فى الصلاة فعيناه
تهملان دمعاً وإذا كان فى الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح
باب الدنيا بفتح الدين ، أبى هو وأمى لم تلد مثله أم
ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح فى العالم دوراً جديداً
وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوى فى نظراته الرفيع والوضيع
ويأكل مع مولاه على خوان واحد ، جائته بنت حاتم
أسيرة مقيده سافرة الوجه خجلة مطرقة رأسها فاستحى النبي
صلى الله عليه وسلم وألقى عليها ردائه ، نحن أعرى من السيدة
الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كله رحمة
هذا بأعدائه وذاك بأوليائه ، الذى فتح على الأعداء
باب الرحمة وقال لا تثريب عليكم اليوم ، نحن المسلمين من
الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة نحن غيض من فيض
واحد نحن أزهار كثيرة العدد واحدة الطيب والرائحة ،
لماذا لا أحبه ولا أحن إليه وأنا إنسان وقد بكى لفراقه
الجدع وحننت إليه سارية المسجد ، إن تربة المدينة أحب إلى
من العالم كله أنعم بمدينة فيها الحبيب .

ولم يزل حب النبي صلى الله عليه وسلم يزيد ويقوى مع الأيام حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه أو ذكرت المدينة على منورها ألف سلام فاضت عينه ولم يملك دمه ، وقد ألهمه هذا الحب العميق معاني شعرية عجيبة منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى « أنت غنى عن العالمين وأنا عبدك الفقير فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بد من حسابي فأرجوك يا رب تحاسبني بنجوة من المصطفى صلى الله عليه وسلم فإنى أستحي أن أنسب إليه وأكون فى أمته وأقترف هذه الذنوب والمعاصي » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان شديد الاعتداد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته وذخره وثروته وأن أعظم مقدار من العلم والعقل وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوى هذا الإيمان البسيط ، يقول فى بيت « إن الفقير المتمرد على المجتمع — يشير إلى نفسه — لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا فى أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته وهما « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من الكلمات الحجازية ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة وحببه ، ومن تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق والعلم العميق والحكمة الرائعة والمعاني البديعة والبطولة الفائقة والشخصية الفذة والعبقرية النادرة ، وإليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم ، وإذا تجردت منه أمة كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفى فحسب . وإذا تجرد منه كتاب كان مجموع أوراق وحبراً على ورق ، وإذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكل بلا روح ، وإذا تجردت منه مدينة أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجردت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليداً أو تكليفاً لا متعة فيه ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة كلت الطبائع وجمدت القرائح وأجدبت العقول وانطفأت شعلة الحياة واختنقت المواهب ، هذا هو الحب الصادق الذى يتجلى على الرجل فيصدر منه من روائع الكلام أو خوارق الشجاعة والقوة أو الآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذى أشعل موهبته وفتح قريحته وملك عليه قلبه وفكره وأنساه نفسه ومتاعب

الحياة وإغراء الشهوات وبريق المادة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحب الذى يدخل بين الطين والماء والحجارة والأجر فيجعل منها آثاراً خالدة وتحفة فنية كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية فى الأدب والفن والتأليف والبطولة إلا وورائه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم وكثرة المعلومات وزيادة الذكاء ، وإن الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية وحسن اختيار اللفظ ودقة المعانى ، وإن المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة وكثرة التأليف والإنتاج . وإن المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة واستحضار المادة الدراسية وكثرة المراجع ، وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة فى الخطابة وأساليب السياسة والحكمة واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب والإخلاص لغايتهم إذا فاق أحدهم على الآخر فإنما يفوقه لأن الغاية أو الموضوع حل فى قرارة نفسه وسرى منه مسرى الروح ومملك عليه قلبه وفكره وقهر شهواته واضمحلت فيه شخصيته فإذا تكلم تكلم عن لسانه وإذا كتب

كتب بقلبه ، وإذا فكر فكر بعقله ، وإذا أحب أو أبغض فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة على الإنسانية جنابة عظيمة إذ قضت على هذه العاطفة التي كانت قوة كبرى ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية أو الحب الجنسي والغرام المادى ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم أن هناك حباً للبعان السامية وجمال معنوى هو أقوى من هذا الحب وأسائت المدرسة العصرية — وأعنى بها نظام التعليم الحديث — إلى الجيل الجديد إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصرى أشبه بجهاد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور . ولا ألم عنده ولا أمل ، إنما هو دوامة جامدة تديرها يد قاهرة أو إرادة قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة أن شعر اقبال من نوع آخر غير النوع الذى عرفناه وجربناه فى شعرائنا المتقدمين والمتأخرين وغير الشعر الذى ندرسه فى مدارسنا ، هذا شعر تهتز له المشاعر وتتوتر له الأعصاب ويحيش له القلب

وتثور له النفس حتى تكاد تحطم السلاسل وتفك الأغلال
وتتمرد على المجتمع الفاسد وتصطدم بالأوضاع الجائرة
وتستخف بالقوة الهائلة ، شعر إذا قرأه الإنسان في لغة
الشاعر أحس بأنه قد مر به تيار كهربائي فهزه هزا عنيفا ،
إذا وجدت ذلك أيها السادة فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر
قوى الإيمان قوى العاطفة جيش الصدر فياض الخاطر
ملتهب الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها
تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه وتغذية هذه العاطفة
وتنميتها وإشعالها .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين
شخصيته وعقليته فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من
بيوت المسلمين ، ولعل مصر هي أسعد بلاد الإسلام
بوجود هذا الأستاذ ولها فيه أوفر نصيب ، ولكن ليس
الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ،
إنما الشأن في معرفته وتقديره وإجلاله والإفادة منه
وإلا لكان أبناء البيت ورجال الأسرة وأهل الحى أسعد
بالمهم وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من

ذلك رأينا أن العالم الكبير والحكيم الشهير والمؤلف العظيم ضائع في بيته مهجور في داره يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتى رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم الذى أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار ، وقد وصل هذا المهتمدى إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعانى والحقائق أعظم من سرور كلبس لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى كلبس وأصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن واستطعامة إياه وقد حكى قصته لقراءة القرآن قال : « قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم وكان أبي يراني ، فيسألني ماذا أصنع ؟ فأجيبه بأني أقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له ما بالك يا أبي تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابا واحدا ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ، فقال إنما أردت أن أقول لك يا ولدي إقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت ،

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ويطير في أجوائه ويجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وإشراق جديد ، وقوة جديدة ، وكلها تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيمانا بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدى وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقدة ، وجواب الاسئلة المحيرة

وأنه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب وفهمه ودراسته والإهتمام به في مشاكل العصر واستفتائه في أزمات المدنية وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي رفع الله به أقواما ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم لا تزال أسيرا للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة فتقرأ عليك سورة يس لتموت بسهولة ، فوا عجبا قد أصبح الكتاب الذي أنزل لينحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة . »

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل في العالم وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، لذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ونزل ضيفاً عليه أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن وقدمها إليه قائلاً : « إن هذا الكتاب رأس مال

أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان على فاتح خيبر ، فبكى الملك وقال لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة في نظام تربيته وتكوين شخصيته هو معرفة النفس والغوص في أعماقها والإعتداد بقيمتها والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره في قصيدة يقول فيها ، انزل في أعماق قلبك وادخل في قرارة شخصيتك حتى تكتشف سر الحياة ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، ولكن أنصف نفسك يا هذا واعرفها وكن لها وفياً ، ما ظنك بعالم القلب هو كله حرارة وسكر وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال ، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل ، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ولا اختلاف الطبقات . لقد كدت أذوب حياء ، وتندى جبيني عرقاً إذ قال لي حكيم : « إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك » .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أن العبد يسمو بها إلى درجة الملوك بل ويعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بأداب هذه المعرفة انكشفت على هذا بعد أسرار الملوك ، إن ذلك الفقير الذى هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم ، إن الصراحة والجرامة من أخلاق الفتیان ، إن عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقا إذا قيد حريته ، يقول فى نفس القصيدة « يا صاح إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادى ويمنعنى من حرية الطيران » .

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته — فى غير صلاف وغرور — فيضن بحريته وكرامته ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول فى مقطوعة : « لك الحمد يا رب إذ لست من سقط المتاع ولست من عبيد الملوك والسلطين لقد رزقتنى حكمة وفراصة ولكنى أحمدك على أنى لم أبعهما للملك من الملوك » ، ويقول مفتخراً : « إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق ولكنى غنى النفس أبى ، وكان عمله بما يخاطب به غيره فى قصيدة يقول فيها : « إذا لم تعرف

رازقك كنت فقيراً إلى الملوك وإذا عرفته افتقر إليك كبار
الملوك ، إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتل للروح وأنت
بخير بينهما إذا شئت اخترت القلب وإذا شئت اخترت البطن ،
ولا شك أن محمد إقبال اختار القلب

لذلك كان يشور إذا جرحت كرامته وامتحننت عفته ،
قدم إليه رئيس وزارة في دولة في عيد ميلاد محمد إقبال
خمسة آلاف روبية فرفضها وقال : « إن كرامة الفقير تأتي على
أن أقبل صدقة الأغنياء ، وعرضت عليه الحكومة البريطانية
وظيفة نائب الملك في إفريقيا الجنوبية وكان من تقاليد هذه
الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة تستقبل الضيوف
في الولائم الرسمية وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير
عليه بذلك فرفضها وقال : ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة
فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ
بقوته ومواهبه يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة في هذه الحياة
وليس له أن يضع نفسه محل الشاعر الذي ليست له رسالة
والنظامين الذين ينظمون في كل مناسبة ، فإذا أريد منه غير
ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجهها إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، أنى لأشكو إليك ياسيد الأمم أن
أصدقائى يعتقدون أنى شاعر نظام فيقترحون على اقتراحات ،
ويقول فى بيت آخر ، أنا حائر فى أمرى ياسيدى رسول الله
إنك تأمرنى أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة وهؤلاء
يقولون أرخ لموت فلان وفلان فماذا أفعل ؟ ،

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته
وبما انتفع بها الإسلام انتفاعا عظيما وقد عصمت الشاعر
من التيه الفكرى والهيام الأدبى اللذان يصاب بهما أدبائنا
وشعرائنا وكتابنا وعلماؤنا فينتجعون كل كلاً ويهيمون فى كل
واد ويكتبون فى كل موضوع وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون
كل شخص ، ويظنون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم
ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد اقبال فكان من
توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين فى الهند
أنه عرف نفسه فى أول يوم وقدر مواهبه تقديرأ صحيحاً
ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح
فى المسلمين وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم والإيمان
برسالتهم والطموح إلى القوة والحرية والسيادة ، كان شاعراً
مطبوعاً حتى لو أراد أو أريد أن لا يكون شاعراً لما استطاع

ولقهره الشعر وغلبه ، كان سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعاني مطاع اللفظ وكان مبدعا يوم كان شاعرا ، وكان شاعرا فنانا وصناعا ماهرا سلم له شعراء العصر الإمامة والإعجاز وتأثر بشعره الجوف من شاعر ولا أديب في عصره الا تأثر به في اللغة والتراكيب والمعاني والأفكار والأغراض ، وهو من أفراد شعراء العالم في التفنن والإبداع وابتكار المعاني وجدة التشبيه والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الانجليزي والالمانى فضلا عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال فعصره لا يخلو من شعراء ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية وعبقريته الفنية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ولا شاعر الوطنية ولا شاعر الهوى والشباب ولا شاعر الحكمة والفلسفة بل كان صاحب رسالة إسلامية استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهر باء فتكون أسرع وصولا ، ولطيب الأزهار نفحات الهوام فيكون أكثر انتشارا ، فكان الشعر حامل رسالته ورائد حكمته يسبقها ويوطئ لها أكنافا ويدلل لها صعابا ويفتح أبوابا وكان شعره من جنود الإسلام — والله جنود

السموات والأرض — ولا أعرف أحداً أَرْضَى الله ورسوله
بشعره بعد حسان بن ثابت رَضِيَ الله عنه ، مثل ما أَرْضَى
هذا الشاعر المسلم ، فأيقظ أمة وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة
وطموحاً إلى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم
الإسلامي حتى أصبحت هذه الأمة لا تَرْضَى إلا بدولة تحكمها
وتدير دفتها ، أوجد بشعره القوى الهزاز القلق الفكري
والاضطراب النفسي الذي عم هذا الشعب المسلم وساور الشباب
الإسلامي بصفة خاصة فأصبحوا لا يرتاحون ولا يهدأ لهم
خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الأجانب حتى أصبحت
في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً
ملهُوساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس
دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر
الإسلامي ، وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية
والتذمر من الحاضر والتطلع إلى المستقبل والقلق النفسي ، فإذا
تم هذا كله ونضج قامت دولة فإن كان شعر قد أقام دولة
وأحدث ثورة فكرية كانت سبب الانتقال من حياة إلى
حياة ومن وضع إلى وضع ، فهو من غير شك شعر إقبال ،

وما ذاك أيها الإخوان إلا لمعرفة الرجل نفسه وتقديره الصحيح لمواهبه وقوته ووضعها في محلها والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعات تافهة وألفاظ فارغة وألوان زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقرين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم وقيمة ما يحسنون وما يمتازون به عن أقرانهم فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة أو باللغة المصرية بالمزاد العلني وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

العامل الرابع :

والمرتب الرابع أيها السادة الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته وفي قوة شعره وتأثيره وجدة المعاني وتدفق الأفكار هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب والأشتغال بالمطالعة بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ويتعرض للنفحات السحرية ويقوم في آخر الليل فيناجي ربه ويشكو به وحزنه إليه ويتزود بنشاط روحي جديد وإشراق قلبي جديد وغذاء فكري جديد فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد يلبس الإنسان فيه قوة جديدة

وحياة جديدة ونوراً جديداً ، لأنه يتجدد كل يوم فيتجدد شعره ويتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السحر ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ومفكر لا يستغنى عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول في بيت « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تسكون لك أنة في السحر ، وكان شديد المحافظة على ذلك كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة « رغم أن شتاء انجلترا كان قارسا جدا وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام ، وكان لا ينبغي به بدلا ولا يعدل به شيئا ، يقول في بيت « خذ مني ما شئت يا رب ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ولا تحرمني نعيمها ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الآلة السحرية والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين فتحرك سواكن قلوبهم وتنفع الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة « اللهم جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية وأيقظ الآمال والآمان

النائمة في صدورهم ، بنجوم سمواتك التي لا تزال ساهرة ،
وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون
بنوم أرزق الشباب الإسلامى لوعة القلب وأرزقهم حبي
وفرستي ، ويقول في قصيدة : اللهم أرزق الشباب أتى في
السحر وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافى التي تطير
بها وتصطاد ، ليست لى أمنية يارب إلا أن تمتلئ فراسيتي
ويعم نور بصيرتي في المسلمين .

العامل الخاص :

والعامل الآخر والمؤثر الكبير في تكوين عقلية
وتوجيه رسالته أيها السادة هو « المثنوى المعنوى » بالفارسية
وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومى في ثورة وجدانية
ونفسية شديدة ضد الموجه العقلية الإغريقية التي اجتاحت
العالم الإسلامى في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان
انتصاراً قوياً وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب
الصادق والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة والقشور
الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية
والأوساط العلمية في الشرق الإسلامى ، والكتاب متدفق
قوة وحياة زاخر بالأدب العالى والمعاني الجديدة والأمثال

الحكيمة والحكم الغالية والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة
القوية والطبع الريان الذى يملئ هذه المنظومة التى لا تزال
فريدة فى موضوعها فى مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له
التأثير القوى فى تحرير الفكر من رق العقل والتقديس
الزائد للقيم العقلية والخضوع للمادية الرعناء ويبعث التمرد
على عالم المادية الضيق والتطلع إلى أجواء الروح الفسيحة ،
وكان العالم فى عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوربي
الذى جرف بجميع القيم الخليفة والروحية ، وقد زادت الآلات
الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية والمبادئ
الخالقية وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية ،
وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان عامل
العقل وعامل القلب وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه
المتجدد ، وقلبه الحار الفائض بالإيمان ، وفى هذا الإضطراب
الفكري والاضطراب النفسى ساعده المشنوى مساعدة
غالية ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً وحل له كثيراً
من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ويحفظ
له هذا الفضل ويذكره فى كثير من أبياته ويعزو إليه كثيراً
من الحقائق والحكم ، يقول فى بيت يخاطب أحد المأخوذين .

بسمحر الغرب ، قد سحر عقلك سحر الإفرنج فليس لك دواء
إلا لوعة قلب الرومى وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصرى
بنوره ووسع صدرى بجرأ من العلوم ، ويقول فى بيت
« لقد أفدت من حجة شيخ الروم أن كليما واحداً —
يشير إلى سيدنا موسى — هامتة على راحته يغلب ألف
حكيم قد أحنوا رؤسهم للتفكير ، وكان محمد إقبال يرجو
أن يحدد عليه ورسالته فى القرن العشرين ويخلفه فى مهمته
العلمية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه فى
الجانب الروحى ، وقد أشار إلى ذلك إشارة لطيفة ، يقول
فى قصيدة « لم ينهض رومى آخر من ربوع العجم مع أن أرض
إيران لا تزال على طبيعتها ولا تزال تبريز كما كانت إلا أن
إقبال ليس قانطاً من تربته فإذا سقيت بالدموع أنبتت
نباتاً حسناً وأنت بحاصل كبير ، .

هذه هى العوامل البارزة التى كونت شخصية محمد إقبال
وهذه هى أثار تربية المدرسة الثانية التى تخرج فيها ولا شك
أنها أقوى من أثار المدرسة الأولى ، فإذا كانت المدرسة
الأولى منحتة مفردات اللغات المتعددة وكميات من المعلومات
وافرة فقد علمته المدرسة الثانية كيف يستعمل هذه المعلومات

وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية
العقيدة الراسخة والإيمان القوى والخلق المستقيم والتفكير
السليم ، والرسالة الفاضلة .

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد إقبال إلى مدرسته الأولى فرأى فيها مواضع
ضعف كثيرة وجوانب نقص عظيمة فتناولها بالانتقاد
في صراحة وشجاعة ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها
وذكر من جنائبات المدرسة — ويقصد بها نظام التعليم
الحديث — على هذا الجيل شيئا كثيرا يفيض به دواوين
شعره ، يقول في بيت : لقد خرجت من المدرسة والزاوية
حزينا لم أجد فيهما الحياة ولا الحب ولا الحكمة ولا البصيرة ،
ويقول في بيت آخر : أما رجال المدرسة ففقدوا البصر
وميتوا الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصروا الهمة وضعفوا
الطلب قليلوا البضاعة .

جنائبات المدرسة :

ومن رأى محمد إقبال أن التعليم الحديث قد جنى على
هذا الجيل جنابة عظيمة إذ اعتنت بتربية عقله وتثقيف

لسانه ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه وإشعال عاطفته وتقويم أخلاقه وتهذيب نفسه ، فنشأ جيل غير متوازن القوى غير متناسب النشاط قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه وعقله وقلبه وعلمه وعقيدته مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً فالأول ضخم وكبير والثاني ضعيف وناعم ، وهو إذا وصف هذا الجيل الذى عاش فيه وعرفه عن كذب واتصال صورته تصويراً صادقاً ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد ، يقول :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كلي البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد فى هذا العالم شيئاً ، هؤلاء الشباب أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، يبنى الجانب من تراهم الإسلامى كنائس وأدياراً ، شباب ناعم رخو رقيق فى الشباب كالحرير ، يموت الأمل فى مهده فى صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية ، إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من

من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية يمدون كفهم إلى
 الأجانِب ليَتصدقوا عليه بخبز شعير ويبيعون أرواحهم في ذلك ،
 إن المعلم لا يعرف قيمتهم فلم يخبرهم بشرفهم ولم يعرفهم
 بشخصيتهم ، مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ولا
 يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ، يشترون من الأفرنج اللات
 ومئات ، مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ،
 إن الأفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة
 وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم وقلوب لا تذوب
 بالقوارع ، كل ما عندهم من علم وفن ودير وسياسة وعقل
 وقلب يطوف حول الماديات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر
 المتجددة وأفكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جامدة واقفة
 متعطلة . . .

ويذكر محمد إقبال أن السبب في جبن هذا الجيل وضعفه
 الخلقى هو الوضع التعليمى الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقى
 ونشأة الشباب المتحللة يقول في قصيدة « لا أستغرب أيها
 الشاب المتعلم أنك حتى جبان فان قلبك بارد لا لوعة فيه
 ولا حرارة ونظرك غير عفيف ، إن الشاب المثقف الذى
 استنارت عينه بنور الأفرنج قد يكون لبقاً فى الحديث متشدداً

في الكلام ولكن عينه لا تعرف الدموع وقلبه لا يعرف الخشوع ، ويرى محمد إقبال أن المدرسة هي المسئولة عن هذا المسخ الخلقى وهى التى نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحل الوضع يقول فى بيت : أشكو إليك يارب من ولادة التعليم الحديث إنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور وأشبال الأسود تربية الخروف ، ومن أسباب هذا الضعف النفسى هو العقل المشبوط الذى يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ويحذر من سوء العاقبة ويكبر الأخطار ، يقول فى بيت : إن التعليم قد باعدك من الجنون الذى كان ينازع العقل ويقول له : لا تتعلل ولا تثبطنى عن المغامرة . إن الأسرار التى حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة فى خلوات الجبال والصحارى ، ومن أكبر أسباب هذا الضعف والذل التقدير الزائد للمادة والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم ، يقول فى بيت : إن ذلك العلم سم نافع للأفراد الذى ليست له غاية إلا حفتان من شعير (يعنى الراتب الذى يتقاضاه الموظف) .

مآخذة على التعليم :

ومن أكبر مآخذة على هذا التعليم أنه يبعث على التعطل وحب الهدوء والراحة ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء لا حركة فيه ولا اضطراب ، يقول فى بيت « رماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فإن بحرك هادىء لا اضطراب فى أمواجه ، وكذلك يبعث هذا التعليم فى الشباب الإخلاد إلى الراحة والترف وحب الزينة ، يقول فى قصيدة « إن مقاعدك أيها الشباب المسلم أفرنجية وزرايك إيرانية ، وإنى أكاد أبكى دماً إذا رأيتك فى هذا الترف والبذخ ، لا خير فىك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة على واستغناء سلمان ،

ومن مآخذة على هذا التعليم أنه يحدث الفوضى الفكرية ، يقول فى بيت « إن المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تترك الأفكار بغير نظام وارتباط ،

ومن مآخذة على نظام التعليم العصرى والمدرسة التى تمثله وتؤدى رسالته أنها مصابة بالتقليد والجود وبمجردة من الابتكار والاجتهاد ، يقول فى قصيدة « إن العالم أسير التقاليد والأوضاع وأن المدرسة منحصرة فى نطاق ضيق ، يا للأسف إن الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمة زمانهم ،

أصبحت عقولهم بالية وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا
بتقليد عصرهم .

إن الدكتور محمد إقبال لا يرى أن هذا الجيل حى قائم
بنفسه يفكر بعقله ، انه يعتقد أنه ظل لأوربا وأن حياته
عارية من الغرب يقول فى بيت : يتراءى لك أن الشاب المتعلم
حى يرزق ولكنه فى الحقيقة ميت استعار حياته من الغرب ،
ويخاطب المتفرنج ويقول : ليس وجودك إلا تجلى الإفرنج
لأنك بناء قد بنوه ، هذا الجسم العنصرى فارغ عن معرفة
النفس فأنت غمد محلى بغير سيف ، وجود الله غير ثابت
فى نظرك ووجودك أنت غير ثابت فى نظرى ،

ومن رأيه أن نظام التعليم الغربى قد ضعف الروح
المعنوية فى الشباب المسلم وجنى على رجولته جناية عظيمة
فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً أغيد لا يستطيع الجهاد
ولا يتحمل المكروه ، يقول فى قصيدة يخاطب فيها بعض المربين
« حيا الله شبيبته يا مربى الجيل الجديد ، ألق عليهم درس
التواضع وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد
بالشخصية ، عليهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال
فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج ، إن عبودية قرنين

متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم فانظر كيف
تعيد الثقة إلى نفوسهم وتحارب الفوضى العسكرية ، وكان
لا يغتفر هذه الجريمة ، يقول في موضع آخر : أنا لا أقيم
لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً التي تجرد المجاهد من سلاحه
وتجعله أعزل ضعيفاً ،

آراؤه في العلوم والآداب :

وللدكتور محمد إقبال آراء حصيفة في العلوم والآداب
والشعر هي عصارة تفكيره وتجاربه منها أن الآداب موهبة
كبيرة من مواهب الله وقوة عظيمة يحدث به صاحبه انقلاباً
في المجتمع وثورة فكرية ويضرب به الأوضاع الفاسدة
الضربة القاضية ويشعل القلوب حماسة وغضباً ويشعل البلاد
ناراً وثورة ، ويملأ النفوس قلقاً واضطراباً وتذمراً من الشر
وتطلعا إلى الخير ، فلا بد أن يكون في قلم الأديب والشاعر
التأثير الذي كان في عصا موسى وأن يؤدي رسالته في العالم ،
وكل أدب استغل لجمع المادة أو لإرضاء الأغنياء والأثرياء
أو إثارة الشهوات أو على الأقل كان أداة للهو والتسلية
والتدوق بالجمال والتغنى به فهو أدب ضائع مظلوم استعمل
لغير ما خلق له ولغير ما وهب له ، يقول في بيت : أنا

لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به فذلك أمر طبعي ،
ولكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع
كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، ويعتقد محمد إقبال
أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز حتى يستمد حياته وقوته
من أعماق القلب الحى ويسقى بدمه .

يقول محمد إقبال هذا ويرى بالعكس أن الأدب في الشرق
الإسلامي قد أصبح تتحكم فيه المرأة فأصبح لا يتحدث إلا عنها ،
ولا يتغنى إلا بها ولا يبحث إلا فيها ولا يصور إلا إياها ولا يرى
في الكون إلا ظلالها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدة في وحدة
الوجود التي يمكن أن تسمى الوجودية الأدبية ، وكأن الأدب
العصرى ينادى بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو
(لا موجود إلا الفتاة) يقول محمد إقبال : أسفاً للشعراء
والرسامين وكتاب القصة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم
المرأة ، ولا شك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبي العام
في الشرق الإسلامى واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة
وهيامه بها وإعراضه عما سواها .

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأى خاص فهو
يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن

الفلسفة التي تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية وتتلهى
 بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ، ولا تدخل في صميم
 الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، ونعيش في العزلة عن العالم ،
 إنما هي فلسفة منهاره لا تستطيع أن تعيش ، يقول في بيت
 « إن الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة ،
 وقد انتهت به دراسته للفلسفة وتوفره على مطالعتها
 ونقدها والتفكير الطويل العميق إلى فشل الفلسفة في مشاكل
 الحياة وأنها صدفة لامعة خالية من اللواق ، وأنها بمعزل عن
 الحياة والكفاح لا تساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً
 للحياة وأن الدين هو الذي ينظم المجتمع وينور الطريق
 ويقدم دستوراً للحياة ، وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم
 هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم ، عرف الشاعر
 صديقا له من السادة الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً
 كبيراً وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال
 قصيدة يقول « أنا رجل كما تعرف انتهى في أصلي إلى سومنات
 المعبد الوثني المعروف في الهند ، وكان آباءى من عباد اللات
 ومناة وأن أسرتى عريقة في البرهمية ، ولكن يجرى في عروقي
 دم الهاشميين وتنتمى إلى سيد الأولين والآخرين ، وقد امتزجت

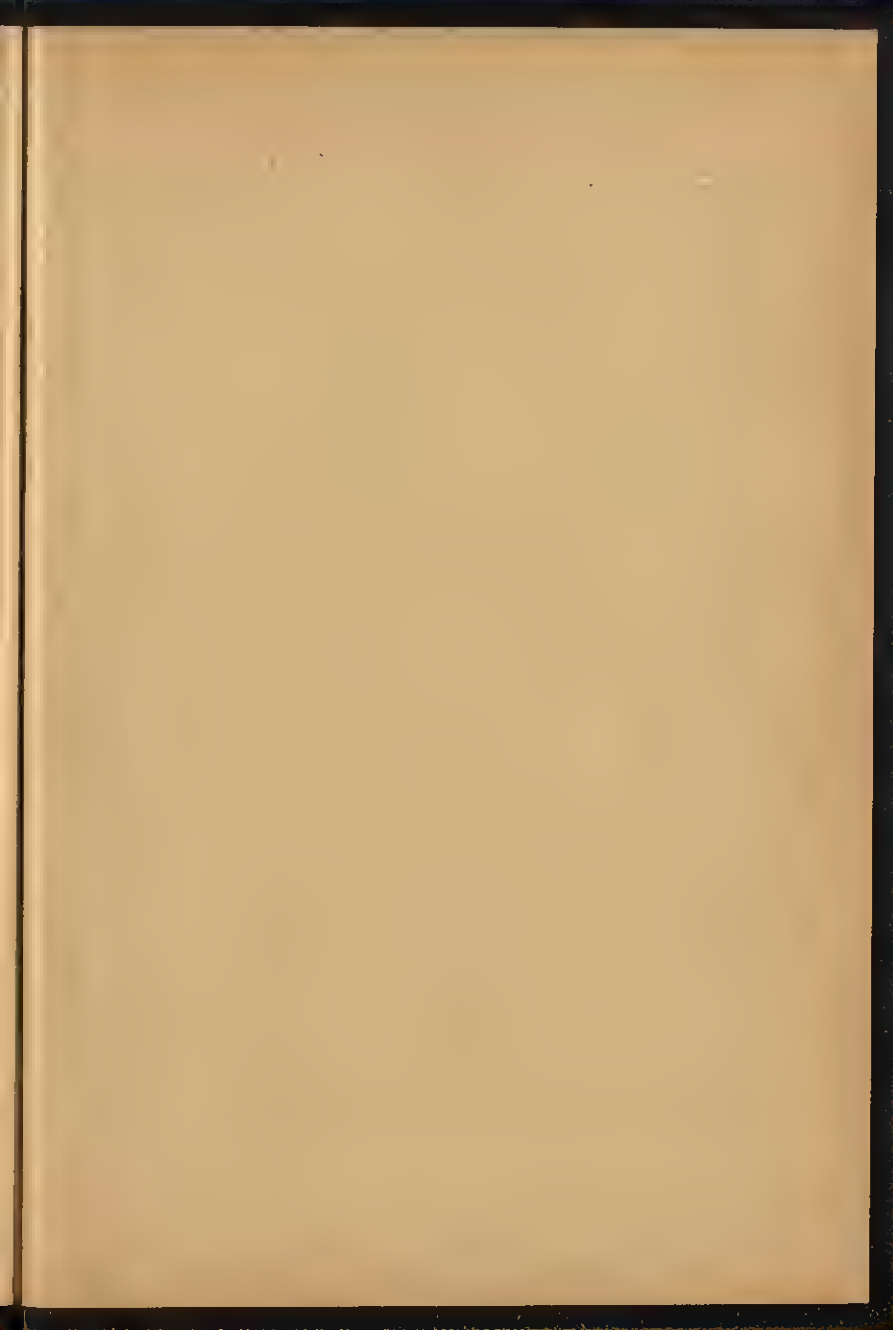
الفلسفة بلحمى ودمى وجرت منى مجرى الروح ، أنا وإن كنت
لا أحسن شيئاً فلا شك أنى نزلت فى أعماق هذه الفلسفة
وتغلغلت فى أحشائها ، وبعد ذلك أقول إن الحكمة الفلسفية
ليست إلا حجاباً للحقيقة وإنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن
صميم الحياة وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل ، هذا
هيغل الذى تبالغ فى تقديره إن صدفته خالية من اللؤلؤة
وأن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام ، لقد انطفأت شعلة
القلب فى حياتك أيها السيد وفقدت شخصيتك فأصبحت
أسيراً لبرجسان ، إن البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها
وكيف تخلد شخصيتها . إن بنى آدم يطلبون الثبات ويطلبون
دستوراً للحياة ، ولكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك ، بالعكس
من ذلك أن المؤمن إذا نادى الأفاق بأذانه أشرق العالم
واستيقظ الكون ، إن الدين هو الذى ينظم الحياة وأنه
لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فعليك
أيها السيد بتهاليم جدك صلى الله عليه وسلم ، إلى متى يا ابن على
(رضى الله عنه) تقلد أبا على (ابن سينا) ! إذا لم تكن
بصيراً بالطريق فالقائد القرشى (يعنى رسول الله صلى الله
عليه وسلم) خير لك من القائد البخارى (يعنى ابن سينا) .

وبالإجمال إن الدكتور محمد إقبال يرى أن نظام التعليم الحديث قد فشل في أداء رسالته وأخفق في إنتاج جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ويحسن استعمال مادته العلمية وثروته الثقافية ويضع كل شيء في محله ويعيش حياة سعيدة مطمئنة ، بالعكس من ذلك وجد جيل مثقف ثقافة عالية يعرف من مجاهل أفريقيا والقطب الشمالى شيئاً كثيراً وعن حياة الحيوان والنبات ولا يعرف عن نفسه ، ويسخر البخار والكهرباء ويسخر الطاقة الذرية في الزمن الأخير ولا يملك نفسه وقوته ، ويطير في الهواء كالطير ويسبح في البحار كالسمك ولا يحسن أن يمشى على الأرض ، وما ذاك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه وفسد مزاجه وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟ يقول في قصيدة « من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح ، وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلها ويشرحها ، لم يستطع أن يميز النفع من الضرر . »

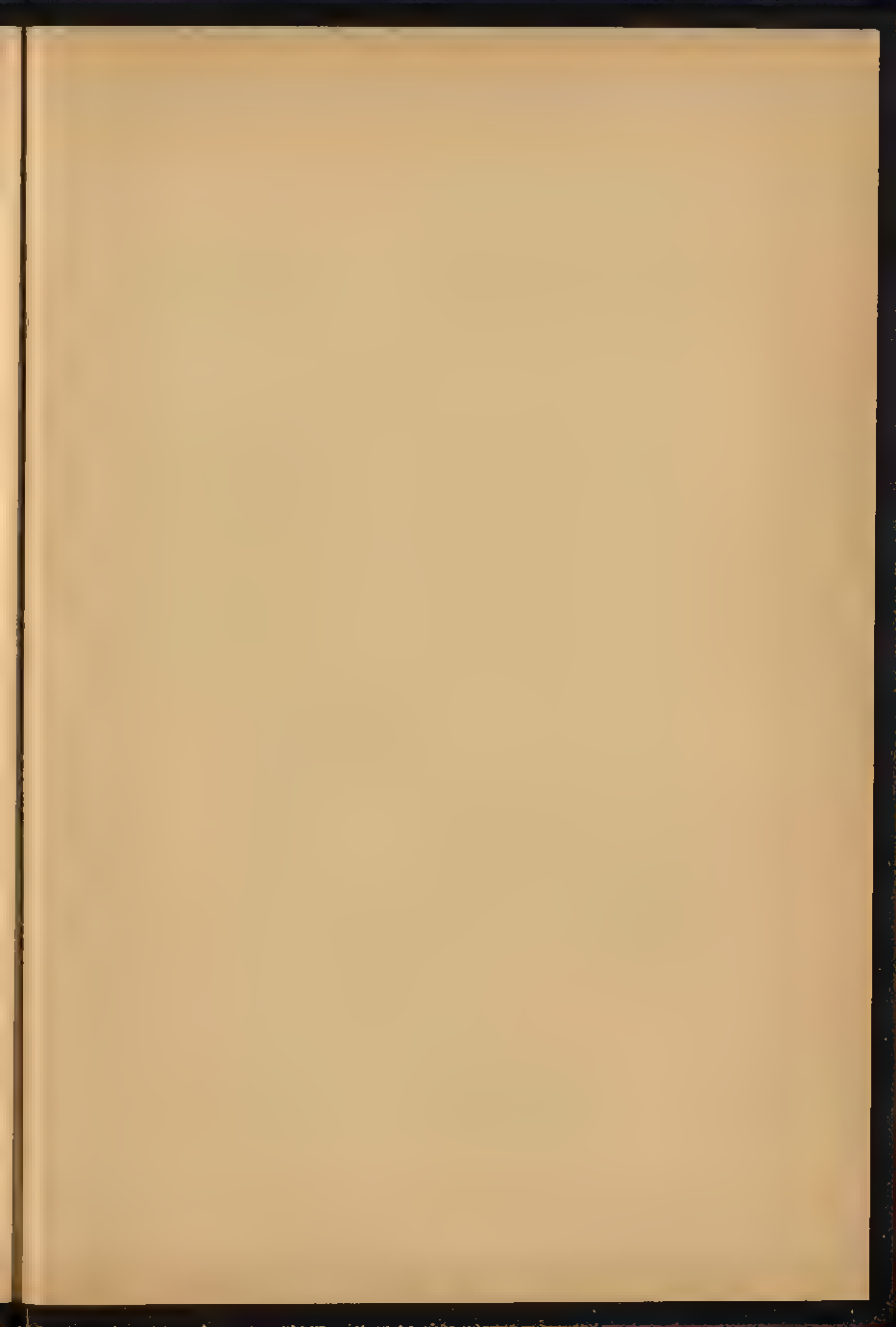
نصوير للشباب المسلم :

وفي الأخير إن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلا
جديداً شبابيه طاهر نقي وضربه موجه قوى ، إذا كانت
الحرب فهو في صولته كأسد الشرى وإن كان صلح فهو في
وداعته كغزال الحى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة
الحنظل هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء ، إذا تكلم كان
رقيقاً رقيقاً وإذا جد في الطلب كان شديداً حقيقاً وكان في
حالتى الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ومقاصده
جليلة ، غنى القلب فى الفقر فقير الجسم والبيت فى الغنى ،
غيبوراً فى العسر رؤفاً كريماً عند اليسر ، يظماً إن أبدى له
الماء منة ويموت جوعاً إن رأى فى الرزق ذلة ، إذا كان بين
الأصدقاء كان حريراً فى النعمة وإن كان بين الأعداء كان
حديداً فى الصلابة ، كان طلاً وندى تتفتح به الأزهار وترف
به الأشجار وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له
البحار ، إذا عارض فى سيره صخور وجبال كان شلالاً ، وإن
مر فى طريقه بحداثق كان ماماً سلسالاً ، يجمع بين ظلال
إيمان الصديق وقوة على ، وفقر أبى ذر وصدق سلمان ،
يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب فى ظلمات الصحراء ،

يعرف في محيطه بحكمته وفراسته وبأذان السحر ، الشهادة
في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص
النجوم ويصطاد الأسود ويبارى الملائكة ويتحدى الكفر
والباطل أينما كانا ، يرفع قيمته ويزيد في سعره حتى لا يستطيع
أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة وحياة الجد والجهاد
عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، وشعر بإنسانيته فترفع عن
تقليد الطأوس في لونه والعندليب في حسن صوته .



الانسان الكامل
في نظر محمد إقبال



الانسان الكامل (*)

في نظر محمد إقبال

بحث عن إنسانه :

قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته
« رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا
كأنه يبحث عن شيء ! قلت له يا سيدي تبحث عن ماذا ؟
قال قد مللت معايشة السباع والدواب وضقت بها ذرعا ،
وخرجت أبحث عن إنسان في هذا العالم ، لقد ضاق صديري
من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي ، فخرجت
أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عيني
برجولته وشخصيته وروح نفسه ، قلت له : لقد غرتك
نفسك يا هذا فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله لا تتعب نفسك
وارجع أدراجك فقد أجهدت نفسك وأنضيت ركابي
ونقبت في البلاد فلم أر لهذا الكائن عينا ولا أثرا ، قال الشيخ

(*) كتبت هذه المحاضرة لتلقى في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
في يوم لإقبال ١٠ أبريل عام ١٩٥١ م .

إليك عنى أيها الرجل فأحب شيء إلى نفسى أعزه وجوداً
وأبعده منالاً

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه
الخالد «رسالة الشرق» رداً على تحية الشاعر الألماني «جيتته»
التي أرسلها بإسم الغرب إلى الشرق، ولا أظن أن محمد إقبال
إختار هذه المقطوعة وحلى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور
نفسيته وتعبر عن شعوره، فقد كان يحكم دراسته الفلسفية
من كبار الرواد الباحثين عن «الإنسان المكامل» فهل وجد
محمد إقبال ضالته يا ترى وظفر بمطلوبه أم قطع منه الرجا؟
وإذا كان الجواب : نعم لقد وجد محمد إقبال ضالته من
الناس وظفر بوطره من الرجال فتأكدوا أيها السادة أنه
فتح أعظم من فتح «كلبس» واكتشاف أجل خطراً وأعظم
قدراً من اكتشاف العالم الجديد لأنه اكتشاف الإنسان
المفقود وعثور على الإنسانى الضائعة ولا خير فى العالم —
قديمه وجديده — إذا فقد الإنسان وضاعت الإنسانية ،
وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات
الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو انسان الطامل :

إن محمد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود وعرفه واتصل به ونراه قد هام به هياما وتغنى في شعره بإنسانيته وشخصيته ، فأين وجدته محمد إقبال ، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع ؟

أخاف أن أفاجمكم أيها السادة بما لا تقدرونه ولا تنتظرونه إذا أخبركم أن الإنسان الكامل الذي وجدته محمد إقبال فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية والقوة والحياة والجمال والكمال هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

إن هذا الجواب مفاجئة حقا للذين يحملون للمسلم صورة قائمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع الذي قدمه الشاعر للإنسان الكامل ، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم « الضالة المنشودة » ، والصورة الكاملة للإنسانية

المسلم المثالي :

ولكنه يعنى أيها السادة ذلك المسلم المثالي الذي يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وبقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال

والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد
الأوطان والألوان والشعوب بأفاقيته وإنسانيته ، وبين عباد
الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده
على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل
الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالاته
ولرسالاته ، ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع
وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير
ولا تتحول ، وأما ما عداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم
هو كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ،
أما ما عداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ،
يقول فى بيت « إنك أيها المسلم حق فى العالم وحدك وما عداك
سراب خادع ودرهم زائف » ، ويقول فى بيت آخر « إن
إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما عداه فى هذا العالم
المادى وهم وطمس ومجاز ،

المسلم له وجودان :

أياها السادة إن المسلم له وجودان ، الوجود الإنسانى ،
والوجود الإيمانى ، أما الوجود الإنسانى فهو الوجود الذى

يشاركه فيه كل إنسان ، يولد كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ويحوج ويظأ ويشعر بالبرد والحر ويأكل ويشرب ويصح ويمرض ويموت ويحيا ويفقر ويغنى ويزرع ويتمجر ويعول العيال ويربى الأطفال ويقتنى الأموال ويحكم البلاد والرجال ، فهو في هذا الوجود خاضع للسنن الطبيعية تجرى عليه كما تجرى على غيره وتنفذ فيه كما تنفذ في أى إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ولا تنساح معه لأنه يحمل اسماً خاصاً وينتمى إلى جنس خاص ويلبس لباساً خاصاً ، وهو ذرة حقيرة في صحراء الوجود المترامية وموجة عادية تأتي وتذهب في بحر السكون الزاخر من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشرى العام وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر كان كائناتاً ضعيفاً فانياً ليست له قيمة كبيرة في نظر صير في الوجود وإذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم شيئاً كبيراً .

أما الوجود الإيماني فهو أنه يحمل رسالة خاصة رسالة الأنبياء والمرسلين ويؤمن بمبادئ خاصة ويعتقد اعتقاداً خاصاً ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ودعامة من دعائم العالم وحاجة من حاجات البشرية

يستحق أن يعيش ويستحق أن ينتصر ويستحق أن يزدهر، بل يجب أن يعيش ويجب أن ينتصر ويجب أن يزدهر، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون، فحاجة البشرية وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور والحرارة، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة كانت معاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التي تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ويتكفل المسلم باعلانها والقيام بها والجهاد في سبيلها، فلولاهو لضاعَت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سرّاً مكتوماً، إذن فركزه في العالم وبقائه كبقاء الشمس والكواكب النيرة تنقرض الأجيال والأمم ونحول الأنهار مجراها وتخرّب عمائر وتعمّر خرائب وتقوم حكومات وتمتلك حكومات وتأتى مدنيات وتذهب مدنيات وهو قائم لا يزول ولا يحول.

المسلم حى خالد :

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حى خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ويحتضن أمانة خالدة ويعيش لغاية خالدة، يقول في

بيت « لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم لأن وجوده
 رمز لرسالات الأنبياء وأن أذانه إعلان للحقيقة التي جاء بها
 إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم ، ويقول
 في بيت آخر « المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريه النسخ
 والتبديل » ولا يعنى محمد إقبال أن كل فرد من أفراد الأمة
 الإسلامية حتى خالد يفلت من الموت ويتمرد على القانون
 الطبيعي ، كيف وقد قال الله تعالى ، وما محمد إلا رسول قد خلت
 من قبله الرسل » وقال « أفان مت فهم الخالدون » ولكن
 محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام
 الخضم يأتي موج ويذهب موج وتترامى هذه الأمواج
 في أحضان البحر وتلاشى في وجوده والبحر لا يتغير فالبحر
 امتداد دائم وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة كبحر الحياة وبحر
 الوجود تتبدل أمواجه — وهى أفراد البشر — ولا يتبدل كيانه.

فلو العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوة أخرى فيعتقد أن المسلم هو غاية
 هذا السكون خلق العالم له وخلق هو الله ، لقد كان العلماء
 يتباحثون في صحة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » ولكن

محمد إقبال لانهم صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، إنه يفهم من القرآن ومن دراسة الإسلام وطبيعة المسلم ورسالته السامية ويفهم من دراسة التاريخ الإنساني الواسعة العميقة والإطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذي هو جارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه هو مصداق معنى الحديث فضلاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو خليفة الله في أرضه خلق لأجله العالم وعليه الأسماء وحكمه في الأرض وأورثه خيراتها وخزائنها وألقى إليه بمقاليدها فيجب عليه أن يعتقد ويقتنع بأن العالم خلق له ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة وتحقيق هذه الفكرة ، يقول في بيت « إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمن كاملاً من لا يعتقد أن العالم خلق له » .

مقام المسلم مقام الرسالة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويسائر الركب البشري حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ولأنه

المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ، فليس مقامه مقام
التقليد والإتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام
الإرشاد والتوجيه ومقام الأمر والنهي ، وإذا تنكر له
الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن
يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن
يثور عليه وينازله وبطل في صراع معه وعراك حتى يقضى الله
في أمره ، يقول في بيت : يقول من لاخلأقه ، در مع الدهر
حيث دار ، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول إذا
لم يسالمك الزمان فصارع وحاربه حتى يفني إلى أمر الله ،
ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجاراة الأوضاع بل هو مكلف
بمصادمة الأوضاع الفاسدة يرد الأمر إلى نصابه ويقيم سالفه
الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصالح الفاسد ، وإن كلفه
ذلك عملية الهدم والنقض والعملية الجراحية فإن كل ذلك
في سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول في بيت : على المسلم
أن يربي في نفسه الروح وينشئ في هيكله الحياة ثم يحرق هذا
العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته وينشئ عالما جديدا ،
ويقول متمثلا : سألني ربي هل ناسبك هذا العصر وانسجم
مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت لا ياربي ! قال فطمه ولا تبال !

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسية والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأفزام ، يقول في بيت « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد ، ويقول « إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه ،

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ ومطلع فجر السعادة في العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، وأن أذانه لا يزال صيحة تدوى في هدوء الليل وسكون الموت فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ويؤذن بطلوع الصبح الصادق وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالى الذى ارتفع من جبل أبي قيس قبل ثلاثة عشر قرناً استيقظ هذا السكون بعد السبات العميق الذى غط فيه خمسة قرون وأكثر وكان نفخة صور

للإنسانية الميثة والعالم المحتضر وهو الكفيل الآن بإيقاظ
الإنسانية وإحياء الضمير البشرى ، يقول فى بيت « إن
المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون ،
ويقول فى قصيدة « لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح
الذى يطلع على هذا العالم كل يوم ولست أعلم سره ، ولكنى
أعلم أن السحر الذى يهتز له هذا العالم المظلم ، ويولى به ليل
الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق ،

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ،
المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه
وباندماجه واضمحلاله فى إرادة الله ، هنا لك يتحول جارية
للقدرة الإلهية وقوة قاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف فى
سبيلها البحار ، يقول فى قصيدة أنشأها فى قرطبة « إن
يد المؤمن جارية القدرة الإلهية ، فهى غلبة حلالة للعقد
والمشاكل ، فتاحة للأبواب المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ، إن
المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبيد متخلق بأخلاق
مولاه ، قلبه غنى عن العالمين » ويقول على لسان القائد الإسلامى

الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه
العرب بالنصر ويناجي ربه وإن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك
الغامضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون
إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء
انشقت إذا ركلوا برجلهم البحر انفلق ، انكشفت الجبال
وتقبضت بمهابتهم ، إنهم عرفوك وأحبوك فزهدوا في العالم
واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك
ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة
الإبل بنعمتك وميزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر وأذان
السحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب والتوجع للإنسانية
المظلومة وفي قلوب هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدمة
وجد العالم مأربه ، بل أن الشاعر يتقدم خطوة ويقول
« ما ظنك بقوة ساعد المؤمن وهو بنظرته يقابل الأوضاع
وبدعوته يرد القضاء ، والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله
محمد إقبال فقد هزأ المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول
من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم
من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبي وقاص وخالد
ابن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وعقبة بن عامر ومحمد

ابن قاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق ابن زياد شاهدة
على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا يخصص في الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين
حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان
والزمان وتفيض كالطبيعة البشرية وكالإنسانية العامة في
مساحة زمانية شاسعة كمساحة التاريخ الإسلامى وفي مساحة
مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامى ، يقول في قصيدة
قرطبة « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفاقه
الشغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجا صغيرة في
بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد
العتيق وغير مجرى التاريخ ، هو في كل عصر ساقى أهل الذوق
وفي كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائما وسيفه
ماض في كل معركة ، ويعتقد محمد إقبال أن العالم كله وطن
للمسلم ، يقول في بيت « المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى
ليست وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطنى العالم
كله ، ويعتقد محمد إقبال إن المسلم يعتبر كل ملك الله وطنا له

يقول « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ،
جاءه رجال من الجيش ولا موه على فعله وقالوا له : لقد قطعت
بنا الحبال فكيف نرجع إلى بلادنا ؟ فوضع طارق يده على
السيف وقال أنا لا أفكر في الرجوع وسنبقى هنا وتتخذ
وطنا ، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد ووطن لنا ، لا فرق
في ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب ، » .

المسلم متخلى بأضداد الله :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من
الأخلاق والصفات وما هي بمتناقضات ولكنها ظلال صفات
الله ومظاهر أخلاق الله ، فهو في تسامحه ورحابته صدره
وكثرة صفحه قد تخلق بخلق « الغفار » ، وفي شدته في الدين
وغضبه للحق وثورته على الباطل قد تخلق بخلق « القهار » ،
وهو في نزاهته وعفته وطهارته ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » ،
وفي صلابته إذا تصلب وشدة شكيمته إذا أبى وشدة بطشه
إذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ، ولا يكون المسلم المثل الكامل
لدينه وصورة صادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق
المتنوعة فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة والصلابة

والمرونة والعفة والنزاهة ويكون في ذلك آية من آيات الله ومعجزة من معجزات الرسول ، ثم يقول الشاعر إن المؤمن هو الميزان العادل والقسطاس المستقيم به يعلم رضا الله وسخطه وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره فهو حسن وما استقبحه فهو قبيح وما ثقل في ميزانه فهو ثقل وما خف فهو طائش ، وفي عزائمته تتجلى إرادات الله وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه ، ثم إن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة فالصبح يطلع كل يوم والليل يتبع النهار لا تخلف فيه ولا تناقض وهو صاحب معان كثيرة ونغمة واحدة فهو كسورة الرحمن في القرآن تتجدد معانيه وتكرر فيه آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وقد صدق الشاعر فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ويضرب على وتر واحد ويكرر رسالة الأنبياء ويقول لكل جيل « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » فهو كالصبح جديد وقديم فهو في جدته ليس شيء أجد منه وهو في قدمه ليس شيء أقدم منه ، هو قديم لكنه يتجدد به العالم وتتجدد فيه الكائنات وتنتعش به القوى وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم أنه

جديد بنفسه تتجدد قواه ويتجدد نشاطه وتتفتح قريحته مع
العصور، عليه سيار وعقله مبتكر ونفسه طموح وهمته وثابة
وهو كالطر كل قطرة غير الأولى ولكنها قطرات مطر
وكلها تحي الأرض وكلها تنبت النبات وكلها تسقى المزارع
والأشجار وكلها تفتح الأزهار وكلها تكون الأنهار وهو
معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : أمي كالطر لا يدرى
أوله خير أم آخره .

المسلم كالشمس لا تقرب مطلقا :

ويقول محمد إقبال إن المسلم كالشمس إذا غربت في جهة
طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة ، وقد صدق فإن
الإسلام لم ينكب في ناحية من نواحي العالم ولم يخسر
إلا وفتح فتحا جديداً في ناحية أخرى ولم يخسر في جانب
دولة إلا وقامت له دولة في جانب آخر ، ولم تسقط له راية
إلا وخفقت له راية أخرى ، ولم يغيب له نجم إلا وطلع له نجم
آخر ، لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة
ومصابا عظيما ولكن عوض الإسلام بها بدولة فتيية من
أعظم دول العالم هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس

القارة الأوروبية وجثمت على صدر الدول والأمم المسيحية التي انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربي الاسلامي، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني حادثين في عصر واحد، ونكب العالم الإسلامي ونكبت بغداد بغارة التتار وانطمست معالم الحضارة الإسلامية وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتسع وتزدهر، وأصيب العالم الإسلامي بهزات عنيفة وقواصم مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوربيين، فقد اقتسمت الدول الأوروبية تراث الدولة العثمانية كمال سائب واغتصبت ممتلكاتها في أفريقية وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق، ولكن تبع هذا كله اليقظة الإسلامية الهائلة والوعي السياسي القوي والطموح إلى الاستقلال والحرية والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيش بها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ونكب المسلمون في العهد الأخير نكبات عظيمة في الشرق الأقصى والوسط وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان في الشرق إحداهما

دولة باكستان والأخرى أندونيسيا ، وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامي متأرجحاً بين الأسفل والأعلى فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمس في أفق إلا وبزغت في أفق آخر ، وذلك لأن الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها والمسلمون هم الأمة الأخيرة التي لا أمة بعدهم ، فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

المسلم هو المنافس الوصير والخطر الدائم على الباطل :
لذلك لم يزل الباطل يعتبر المسلم المنافس الوحيد والمصارع الشديد لنظامه ، ووكلائه يحسبون له كل حساب ويتربصون به الدوائر ولا يعدلون به خطراً من الأخطار ولا يهدأ لهم بسببه خاطر ولا يقر لهم قرار ، وهم ينادون بلسان الحال : لا نجونا أن نجا الإسلام ولا عشنا أن عاش المسلمون ، وقد وصف محمد إقبال في قصيدته البديعة « برلمان إبليس » في ديوانه الأخير : « أرمغان حجاز — يعني — هدية الحجاز ، وذكر خطورة الإسلام في نظر إبليس وجنوده وأنا أنقل هنا ترجمته من كتابي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » .

« إن الشياطين وزملاء إبليس وأعدائه اجتمعوا في مجلس شورى وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحذقت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها فذكروا أحدهم الجمهورية وحسب لها حسابا كبيرا ، فقال الثاني : لا يهولك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية وليس الشأن في الأمير والملك ، إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيها الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالا على غيره مستشرفا إلى متاع غيره سواء في ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى « كارل ماركس » ، ذلك الباقعة الذي

ليس نبيا ولكنه يحمل عند أتباعه كتابا مقدسا ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده وأثار العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مبانى الإمارة والسيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة إن سحرة أوربا وإن كانوا يريدونك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من « مزدك » ، [الزعيم الفارسى الاشتراكى] ، قد كاد يأتى على العالم بقواعده فاستنسر البغاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) أنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وها هى قد استفحلت وتفاقم شرها وها هى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، يا سيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك وينقلب نظام العالم ظهر آلبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » ، وقال : إني أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء وسيرى العالم عجباً إذا حرشت بين الأمم قهارشت تهارش الكلاب وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فيكونوا على ثقة أن الخرق الذي أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفأه المنطق المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفا فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رماذها ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحرا ، لا يخفى على الخبير المتفكر أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورا وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، واسكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقضى مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إني أحذركم وأنذركم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حامى الذمار حارس الذم والأعراض ، دين الكرامة والشرف دين الأمانة والعفاف

دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ويمحو كل أثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملوك مستخلفين في أموالهم ، أمناء لله وكلاء على الأموال ، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفسك والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلطين .

فابدلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس وليهينكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه نكير لنا أن يظل مشغولاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسـم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره ، اشغلوهم يا إخوانى عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهدا فيه واستخفافا لخطره ، يا ويلتنا يا شقوتنا

لو انتهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم
وتعسه ، (١)

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلا نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم وكانت
مؤامرة مبيتة ضد الإسلام وخطة منظمة ضد أجياله القادمة
فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجرة الإيمانية التي لا تزال
كامنة في الرماد وتجريد المسلمين في بلاد العرب والعجم من
الحمية الدينية والعاطفة الإسلامية التي تحمل أصحابها على
التضحية والجهاد وتحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله
والثورة على الباطل وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده ،
يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها « وصية إبليس إلى
تلاميذه السياسيين » « إن هذا المجاهد الذي يصبر على الجوع
ولا يحسب للموت حسابا ، أخرجوا روح محمد صلى الله عليه
وسلم من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعا من الفقر
شديد الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغريبة
وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنون بذلك من

(١) « ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين » ص ٢٣٠ — ٢٣٣

إجلال الإسلام من الحجاز واليمن ، إن في الأفغان غيرة دينية وعلاجها أن تنفخ العالم الديني من جبالها وسهولها .
وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم الذي يجرّد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية وينشئ فيه طبيعة النفعية والأيقورية وطبيعة التهام الحياة وانتهاك المسرات وتقديس المادة ورجالها وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك وضعف الثقة بالنفس والشك في الدين ، لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الإله آبادي أن فرعون مصر أخطأ الرمية وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبنائهم ويستحي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار وبعد النظر ودقة التفكير لا كتفى بتأسيس كلية لبني إسرائيل ينشئ الجيل الإسرائيلي الجديد كما يشاء ويسبك العقول والطبائع سبكاً جديداً لا يدع إمكاناً لنشأ شاب مثقف يشعر الشعور الديني ويحمل العاطفة الدينية والغيرة القومية ويهتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات

والدرجات ، لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى من هذه المتاعب وسوء الأحداث ووصل الى غايته في سهولة ويسر وهدوء وسلام وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حامى العلم ، و « مربى الجيل ، وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في اضعاف الروح الدينية :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكركتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الديني في بلاد الإسلام وخمدت جذوة الإيمان وفقدت البطولة الإسلامية وروح الجهاد وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر وقد ساح في كثير من البلاد الإسلامية والعربية « لقد تجولت في بلاد العرب والعجم فرأيت خلفاء أبي لخب كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد صلى الله عليه وسلم نادرا كالكبريت الأحمر والعنقاء المغرب ، ويقول في قصيدة قالها في فلسطين « لا أرى في بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السمو الفكري الذي كان يمتاز به العجم ، لا تزال دجلة والفرات

متعطشتين إلى بطل من أبطال الإسلام ولكنى لا أرى
في قافلة الحجاز أحدا يقوم مقام الحسين .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذى وقع في حياة المسلمين
ويتألم لذلك أشد الألم ويبكى دما وشعره يفيض بهذه
الآثات والدموع ، يقول في أبيات « يا وارث التوحيد
الإسلامى لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر والعمل المسخر
القاهر ، لقد كنت يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحد
ارتعد فرقا منك وطار قلبه شعاعاً وقد أصبحت اليوم
كسائر الناس لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً ، ويقول
في موضع آخر « إن السجدة التى كانت تهتز لها روح الأرض
لقد طال عهد المحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشاق
الأرض الجديدة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع في مصر ولا في
فلسطين ذلك الأذان الذى ارتعشت له الجبال بالأمس »
ويقول في بيت « لقد فقد المسلم لوعة القلب وانطفأت نار
الحياة فيه فأصبح ركماً من تراب ، ويقول « لم أر في محيطك
أيها المسلم لؤاؤة الحياة وقد بحثت عنها موجة موجة وتفقدتها
صدقة صدقة ، ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور
هو القلب الذى خوى من الإيمان وشعلة الحياة يقول

« لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ونزفهم دم الحياة فأصبحوا هيكلا من عظام لا روح فيه ولادم ، الصفوف زائغة والقلوب مضطربة والسجدة لالذة فيها ، ذلك لأن القلب خال من الحنان . »

البقرة الإسلامية :

هذا ولكن محمد إقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التي أصيب بها العالم الإسلامي أقضت مضجع المسلمين وأيقظتهم ودب فيهم ديب الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » ، « إذا رأيت النجوم شاحبة منكدة تخفق فأعلم أن الفجر قريب ، هاهي الشمس قد ذرقرنها من الأفق وولى الليل على أدباره ، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام فانما تتكون الآلى في البحر المتلاطم الهائج ، لقد دب ديب الحياة في الشرق وجرى الدم الفائر في عروقه الميتة وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي . أن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية والذكاء الهندي والنطق العربي ، ويقول في بيت « إن إقبال ليس يائسا من تربته الحقيمة فانها إذا سقيت أتت بحاصل كبير . »

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كائناتها وقد شاخت وهرمت وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وأن العالم القديم الذي حوله مقامروا الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريبا والانسانية تتمخض بعالم جديد ، ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه الا من بنى للانسانية البيت الحرام بالأمس وورث ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم في قيادة العالم وارشاده ، فيهيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم وينشده بالله أن يقوم ويمسح النوم من عينيه فقد ظهر الفساد في البر والبحر وعاث الأوربيون في الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخرّبوا العالم وملاؤه ظلما وظلمات ، وشرورا وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتا من بيوت الله جعلها مسجداً وظهورا وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمار ، وبيت الفسق والدعارة ومكان النهب والغارة ، وقد أن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ويبني العالم من جديد .

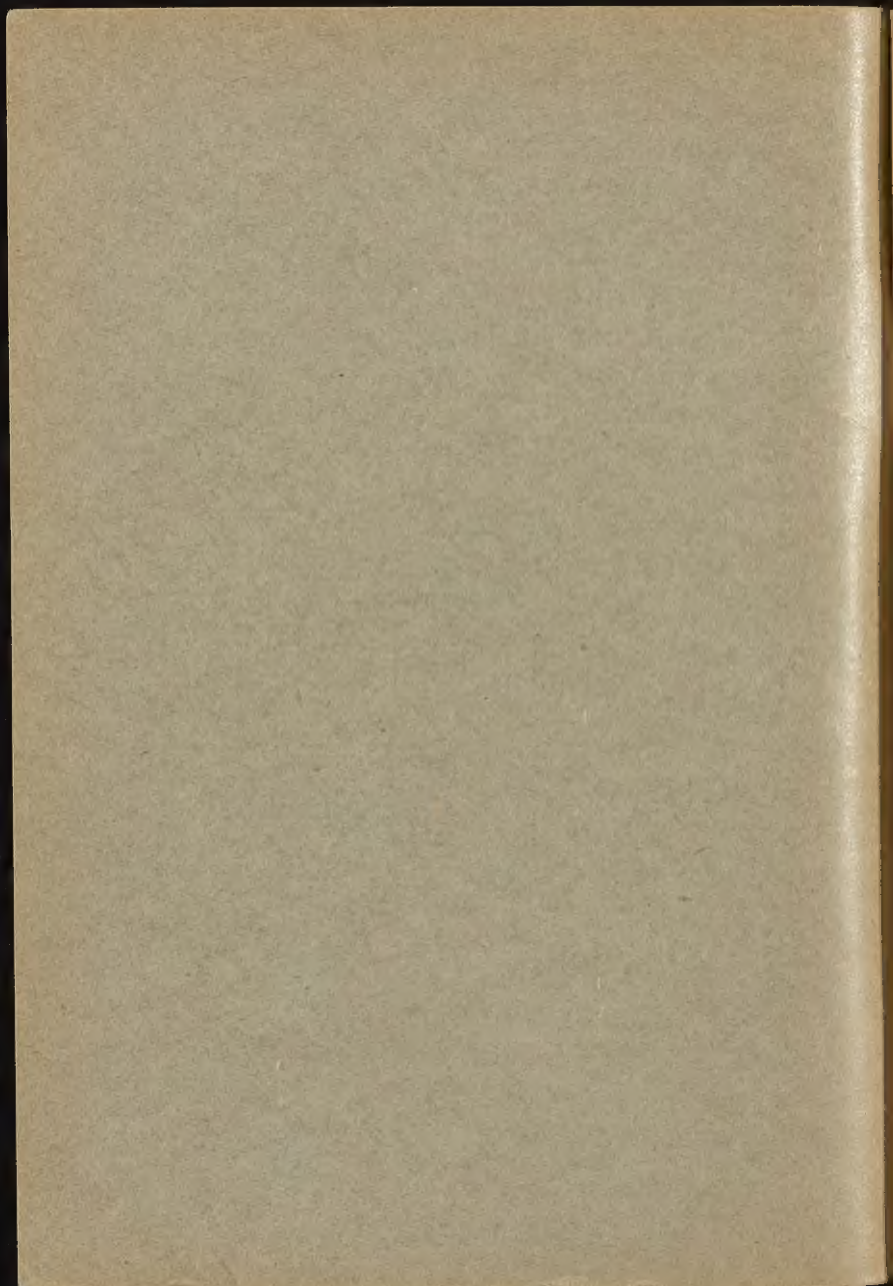
فهرست

صفحة

الموضوع

٥	خلاصة حياته	الدكتور محمد إقبال
	العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال ، وآراؤه في	
١٧	التعليم والعلوم والجيل الجديد	
١٧	المدرسة الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال	
١٨	المدرسة الثانية	
٢١	العامل الأول	
٢٨	العامل الثاني	
٣٢	العامل الثالث	
٣٨	العامل الرابع	
٤٠	العامل الخامس	
٤٣	نقده لنظام التعليم	
٤٣	جنايات المدرسة	
٤٧	مآخذ على التعليم	
٤٩	آراؤه في العلوم والآداب	
٥٤	تصوير للشباب المسلم	
٥٩	الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال	
٥٩	بحث عن إنسان	
٦١	المسلم هو الإنسان الكامل	

صفحة	الموضوع
٦١	المسلم المثالي
٦٢	المسلم له وجودان
٦٤	المسلم حي خالد
٦٥	خلق العالم المسلم
٦٦	مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه
٨	المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة
٦٩	قوة المؤمن مستمدة من رسالته
٧١	المسلم لا ينحصر في الأوطان والشعوب
٧٢	المسلم متخلق بأخلاق الله
٧٤	المسلم كالشمس لا تقرب مطلقا
٧٦	المسلم هو المنافس الوحيد والخطر الدائم على الباطل
٨١	مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم
٨٣	نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني
٨٥	اليقظة الإسلامية
٨٦	المسلم هو باني العالم الجديد





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

(NEC)

PK6561

.I5

Z773

1951